

قراءة في مخطوط " شرح الأُمِّ على منصوصة بهرام في المسائل التي لا يحذر فيها بالجمال "

بن سالم عابري *

الحمد لله على نعمه وأياديه، حمداً يتقبله منا ويرتضيه، والصلاة والسلام على حبيب الحقّ وسيدّ الخلق القائل: " من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين " ¹، وعلى آله وصحبه الطيّبين الطّاهرين الذين زادوا عن حياض الدّين بما أوتوا من صبر وعلم ويقين.

وبعد: فإنّ ممّا لا خلاف فيه بين أهل القبلة أنّه لا يمكن للإنسان أن يُقدّم على عمل حتى يعلم حكم الله فيه، ومن ثمّ فإنّ كلّ ما يصدر من المسلم من قول أو فعل أو تصرّف، لا بدّ أن يكون له في الشّرع حكم داخل تحت الأحكام التكليفية الخمسة؛ من وجوب أو ندب أو تحريم أو كراهة أو إباحة، لهذا أكرم الباري عزّ وجلّ أناساً من هذه الأُمّة، وجعلهم موقعين عنه في بيان الحلال من الحرام؛ قال تعالى: "فلولا نفر من كلّ فرقةٍ منهم طائفةٌ ليتفقهوا في الدّين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلّهم يحذرون" (التوبة: 22).

* أستاذ مشارك بكلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية.

فمنذ ما استيقظوا ما ناموا، ومنذ ما قاموا ما وقفوا، وألّفوا كتباً في شتى علوم الدّين، وخاصّة فيما يتعلّق بالأحكام الشرعية التي يحتاجها المسلمون في حياتهم، ونظراً لشأن الموقف قامت طائفة من العلماء ببيان بعض الأحكام الفقهية إمّا نثراً؛ كمختصر الشيخ خليل - رحمه الله - أو نظاماً؛ كالمخطوط المراد دراسته بعنوان " شرح الأمير على منظومة بهرام في المسائل التي لا يعذر فيها بالجهل". وهو كتاب من تتبّعه يدرك طول نفّس أصحابه في العلوم الشرعية. ولنبدأ بتوصيف هذا المخطوط بعون الله تعالى المجيد.

الفصل الأوّل: ترجمة أعلام المخصوص (خليل بهرام، الأمير).

- (التعريف بالناظم (العلامة بهرام):

أوّلاً: (اسمه ونسبه).

بهرام: هو قاضي القضاة تاج الدّين أبو البقاء بهرام بن عبد الله بن عبد العزيز الدّميري؛ نسبة إلى دميّة، قرية من قرى دميّاط. حامل لواء السّادة المالكية بمصر في وقته. ولد سنة: (724هـ)².

ثانياً: شيوخه.

كما قيل: ذاك الشّبل من ذاك الأسد، إذا علمنا بعض شيوخ بهرام أدركنا سبب حملة اللّواء، نذكر منهم على سبيل الاختصار ما يأتي:

1- ممّن لهم صلة وثقى بهذا المخطوط الذي نحن بصدد دراسته الشيخ خليل؛ لذلك سنفصّل قليلاً في ترجمته هنا؛ تجنّبا للتّكرار، فهو: أبو المؤدّة ضياء الدّين

الجندي، الذي لم يفارق زيّ الجنديّة مدّة حياته تقشّفاً، وكان يسمّى محمّداً ويلقب بضياء الدّين، تفقّه على المذهب المالكي على شيخه عبد الله المنوفي، تميّز كغيره من المالكية بقلّة التّأليف وجودة التحقيق؛ ودليل ذلك مختصره الفقهي الذي نسج فيه على منوال الحاوي³، وهو من أجلّ المختصرات على مذهب مالك، فقد صغر حجمه وكثر علمه، واهتمّ ببيان ما به الفتوى⁴، ثمّ كتابه المسمّى بالتوضيح الذي قصد منه شرح مختصر ابن الحاجب الفرعي المسمّى بـ"جامع الأمّهات"، يقول عنه ابن فرحون: "ألّف شرح "جامع الأمّهات" لابن الحاجب شرحاً حسناً، وضع الله عليه القبول، وعكف التّاس على تحصيله ومطالعتة، وسمّاه التوضيح"⁵، وقد اشتغل العلامة بهرام على نظم مسائل منه نحن بصدد الحديث عنها، من شيوخه عبد الله المنوفي وأبو عبد الله ابن الحاج، توفي أسكنه الله فسيح جنانه سنة: (767هـ).⁶

2- الرهوني: يحيى بن عبد الله شرف الدين الفقيه المالكي أصله من المغرب درّس بالشيخونية (ت774هـ).⁷

ثالثاً: تلامذته.

لقد فقه على يدي العلامة بهرام أئمّة أعلام، من أهمّهم:

- عبد الرحمن البكري.
- الأقفهسي: القاضي الفاضل جمال الدّين عبد الله بن مقداد، فقيه عالم إمام، تفقّه بالشيخ خليل، انتهى إليه رئاسة المذهب والفتوى بمصر، له

شرح على مختصر العلامة خليل في ثلاثة مجلدات وشرح على الرسالة وتفسير، توفي رحمه الله تعالى سنة: (823هـ)⁸.

رابعاً: مؤلفاته.

خلّف الشيخ بهرام مجموعة من التأليف النافعة، التي خدم في بعضها مختصر شيخه خدمةً جليّةً؛ كيف لا وقد شهد له الشيخ خطّاب بذاك قائلاً: وقد اعتنى بجلّ عبارته (يقصد المختصر) وإيضاح إشارته... تلميذه العلامة بهرام، صار بها غالبه في غاية الوضوح⁹، ومن أهمّ هذه الآثار:

- 1 - ثلاثة شروح للمختصر: الكبير والأوسط والصغير، وكلّها معتمدة في المذهب، وأشهرها الأوسط؛ يقول النابغة محمّد بن عمر الغلاوي (ت1245هـ): واعتمدوا بهرام لكن بالوسط أقسّط¹⁰ في تحقيقه وما قسّط¹¹.
 - 2- الشامل الذي حاذى به المختصر.
 - 3- شرح مختصر ابن الحاجب الأصلي.
 - 4- شرح على ألفية ابن مالك.
 - 5- الدرة الثمينة نحو ثلاثة آلاف بيت وشرحها¹².
- #### خامساً: وفاته.

توفي العلامة بهرام بعد حياة مليئة بالعلم والتعليم - رحمه الله تعالى - سنة: 805هـ¹³.

التعريف بالشارح: الشيخ محمد الأمير الأزهري المالكي أولاً: (اسمه ونسبه):

الأمير: محمد بن محمد بن أحمد بن عبد القادر السبناوي المالكي الأزهري، المعروف بالأمير، وهو لقب جدّه الأدنى، يكنى أبا عبد الله ويكنى أبا محمد كذلك، أصلهم من المغرب نزلوا بمصر ثم بناحية سنبلو، كان مولده سنة: (1154هـ).

ثانياً: شيوخه.

ذكرت المصادر شيوخاً عدّة للأمير على اختلاف اختصاصاتهم ومشاربهم، في نذكر منهم ما يأتي:

- 1 - الصعيدي: الذي لازمه الأمير أكثر من عشرين سنة.
- 2 - التاودي: أخذ عليه حين وروده للحجّ سنة (1181هـ).
- 3 - محمد بن عبد السلام الناصري الذي بات بمنزله وجعل له النظر في شؤون الزاوية¹⁴.

ثالثاً: تلامذته:

من أبرز من أخذ عن الأمير:

- 1 - ابنه أبو عبد الله محمد، المعروف بالأمير الصغير.
- 2 - أبو العباس أحمد الصاوي الخلواتي (ت1234هـ).
- 3 - الحجازي بن عبد اللطيف العدوي الأزهري، له حاشية على مجموع شيخه¹⁵.

رابعاً: مؤلفاته.

درس الأمير عدّة فنون من العلم الشرعي وطرق سندها إلى مؤلفيها، ممّا كوّن له قريحة ساعدته على إدراكها والتأليف فيها، كما أنّه رزق فيها القبول؛ من ذلك ما يأتي:

- 1- المجموع وشرحه وحاشيته عليه.
- 2- حاشية على شرح عبد الباقي الزرقاني على المختصر.
- 3- حاشية على شرح عبد السلام اللقّاني على الجوهرة¹⁶.

خامساً: وفاته.

توفي الأمير - رحمه الله - سنة: 1232هـ، وشهدت جنازته مشهداً حافلاً، ودفن بجوار مدفن عبد الوهاب العفيفي¹⁷. رحم الله جميع العلماء.

(التعريف بالمخطوط : يتناول المخطوط الذي بين أيدينا أمرين:

- 1- منظومة بهرام في " المسائل التي لا يعذر فيها بالجهل ".
 - 2- شرح الأمير على منظومة بهرام.
- ومن ثمّ كان لزاماً التعريف بهما وفق العناصر الآتية:
- توثيق نسبة النظم أو الشرح إلى مؤلفه، وبيان عنوان المخطوط.
 - منهجه من حيث الاستيعاب.
 - منهجه من حيث الاستدلال.
 - منهجه من حيث الترتيب.

1- نظم بهرام في " المسائل التي لا يعذر فيها بالجهل " .

- توثيق نسبة النظم إلى مؤلفه:

إنّ معظم من ترجم للمصنّف - رحمه الله - لم يذكر هذا النّظم خلال مؤلّفاته، إلّا أنّ هذا لا يمنع من نسبته إليه؛ فقد اتفقّ ما هو مكتوب على المقدّمة مع الغلاف على ذلك من خلال النّسخ الخمس الموجودة ؛ بالإضافة إلى أنّنا نجد الأمير - رحمه الله - في المقدّمة يذكر ما يجعلنا نحكم جازمين على نسبة النظم للعلامة بهرام، فقد قال ما نصّه: " ذكر العمدة الإمام الشيخ خليل في توضيحه مسائل لا يعذر فيها بالجهل، ونظمها العلامة بهرام - رضي الله تعالى عنه - " ¹⁸.

- عنوان المخطوط.

لقد أجمعت مقدّمات النّسخ الخمس على عنوان واحد، ألا وهو " المسائل التي لا يعذر فيها بالجهل " ¹⁹؛ ومّا يستأنس به في تحقيق هذا العنوان موافقته لما كتب على غلاف كلّ النسخ.

- منهجه من حيث الاستيعاب.

لقد تناول المصنّف العلامة بهرام في منظومته سبعا وثلاثين، وزاد الأمير مسألتين، فأصبح المجموع تسعا وثلاثين مسألة لا يعذر فيها بالجهل في المذهب المالكي، واستطاع أن يعقد ألفاظ هذه المسائل في نظم يسير؛ تسهيلا للحفظ، مقتنياً في حصرها أثر الشيخ خليل في توضيحه الجليل، ويغلب على هذه المسائل الأحوال الشخصية، أمّا الأبواب الفقهية الأخرى من عبادات أو معاملات فلم تحظ بنصيب وافر، بالإضافة إلى أنّ بهرام ذكر مسائل مهمّة أصبحت مثار جدل

في وقتنا؛ كمسألة قتل الطبيب بعلاجه، أو فتوى الجاهل، فقال - رحمه الله - عاطفاً على ما لا يعذر بجهله:

كذلك طبيب قاتل بعلاجه بلا علم أو مفتٍ تعدّى جاهلاً²⁰
- منهجه من حيث الاستدلال.

لم يُؤلّ العلامة بهرام في نظمه للمسائل التي لا يعذر فيها بالجهل الاهتمام بالدليل، شأنه في ذلك شأن سائر المتون الذي يكون القصد منها الاختصار.

- منهجه من حيث الترتيب.

لم يتبع المصنّف - رحمه الله - منهجاً في ترتيب المسائل على وفق أبواب أو فصول كغيره من الفقهاء الذين اهتموا بالنظم؛ كمتن ابن عاشر، أو الذين دوّنوا كتباً؛ كصنيع الشيخ خليل في التوضيح؛ ومن الأدلّة على ذلك قوله في إحدى أبياته متحدثاً عن الحدود²¹:

وسارق ما فيه النصاب مؤخذ وإن لم يكن ظرف النصاب معادلاً.
ثم تحدّث عن الرهن فقال:

ومن ردّ رهناً بعد حوز لرّبه فلا شك أنّ الحوز صار معطلاً²².

ثمّ رجع إلى الحدود قائلاً:

كذلك من يزني ويشرب جاهلاً من أهل البوادي حّده ليس مهملاً.²³

2- شرح الأمير على منظومة بهرام.

إنّ ممّا يزيد أيّ متنٍ قيمة علمية شرحه على وفق المقصود، ولن يتمّ هذا إلّا إذا كان الشارح في مستوى الناظم أو يزيد؛ لذلك لما تولّى العلامة الأمير شرح نظم بهرام حصلت النتيجة وتمّت الفائدة.

- توثيق نسبة الشرح إلى مؤلفه:

ممّا لا يكاد يدع مجالاً للشكّ في نسبة شرح منظومة بهرام للأمير قوله في المقدمة ما نصّه: "... أمّا بعد: فيقول محمّد الأمير الأزهري المالكي: "...، قد ذكر العمدة الإمام الشّيخ خليل في توضيحه مسائل لا يعذر فيها بالجهل، ونظمها العلامة بهرام...، فوضعت هذا الشّرح راجياً من مولانا القبول والفتح"²⁴.

- عنوان المخطوط.

إذا عدنا إلى مقدّمة شرح منظومة بهرام، فإنّنا لا نجد دليلاً واضحاً على عنوان المخطوط، إلّا ما وجد على الغلاف الذي يمكن أن يتصرّف فيه مالكة بعنوان: "شرح الأمير على منظومة بهرام"، أمّا التراجم التي ذكرت للأمير كتبه فلم تذكر هذه الشرح أصلاً.

- منهجه من حيث الاستيعاب.

لما كان العلامة بهرام ناظماً لمسائل ذكرها سيّدي خليل في التوضيح، صار من اللازم على الأمير الرجوع إلى الأصل؛ ليورد النصّ الذي ذكرت فيه المسألة، ولم يكتف بذلك، بل يذكر أقوال علماء المالكية فيها؛ منهم على سبيل التمثيل:

الشيخ عبد الباقي²⁵؛ مع الاستشهاد بنصّ المدوّنة عليها أحياناً؛ من ذلك عند قول الناظم:

ومن سكّنت عند ارتجاع وجومعت وقالت لقد كان اعتدادي كاملاً²⁶.

يقول الشارح: "قال في التوضيح: المطلقة يراجعها زوجها، فتسكت حتى يطأها، ثم تدّعي أنّ عدّتها كانت انقضت، وتدّعي الجهل في سكوتها²⁷ اهـ. وليس الوطئ شرطاً لما في المختصر²⁸ إذا أشهد برجعتها فصمتت، ثمّ قالت بعد يوم أو بعضه كما في عقب(أي: عبد الباقي) عن المدوّنة²⁹ كانت انقضت لم يقبل قولها؛ لأنّ سكوتها دليل على كذبها"³⁰.

والذي يقرأ شرح الأمير يجد فيه نفّس العلماء الأوّل؛ ويخرج بفوائد عظيمة في فنون عدّة، منها:

- ذكره لبعض القواعد الأصولية والفقهية؛ كقوله:
- الخطأ والعمد في أموال الناس سواء³¹.
- الجاهل في العبادات كالعامد³².
- العبرة في صحّة العقد موافقته الشرع في الواقع ونفس الأمر³³.
- يهتمّ في بعض الأحيان بشرحه بعض المفردات الموجودة في النظم؛ وهذا قد يدلّ على أنّه كان يرجع إلى المعجم اللغوية من ذلك:
- تسربلاً: أي لبس التسربال وهو ما فوق الدرع³⁴.
- استعماله لبعض الأساليب البلاغية كبراعة الاستهلال أو براعة المطلع وهي التي " تكون بالبدء بما يكون فيه إلماح إلى المقصود الأوّل"³⁵، وهذا ما أشار إليه الأمير

في المقدمة بقوله : " الحمد لله الذي شرف العلم ولم يجعل الجهل في كثير من الدين عذراً " ³⁶ ، والمقصود من هذا الشرح بيان المسائل التي لا يعذر فيها بالجهل .
- استحباب الترضي على العلماء وتبجيلهم : وفي هذا يقول الأمير : "... ، قد ذكر العمدة الإمام الشيخ خليل في توضيحه مسائل لا يعذر فيها بالجهل ، ونظمها العلامة بهرام رضي الله تعالى عنه وعن الجميع وعنا بهم " .
وتعظيم الصالحين والعلماء المعترين من المستحبات ، بل هو كما يقول عبد الفتاح أبو غدة - رحمه الله - : " من ضلّب العمل بالعلم " ³⁷ ، ويدخل في هذا التعظيم الترضي والترحم على العلماء ؛ خاصة في وقت كثر فيه التّطاول على الأخيار ؛ يقول الإمام النووي - رحمه الله - في آخر (باب الصّلاة على رسول الله - صلى الله عليه وسلّم -) : " يستحبّ التّرضي والترحم على الصّحابة والتّابعين ومن بعدهم ، من العلماء والعباد وسائر الأخيار " ³⁸ .
- **منهجه من حيث الاستدلال .**

شرح الأمير شبيهه في الغالب بمشروحه من حيث الاستدلال ، إلّا ما ورد في شرح بعض الآيات من ذكر بعض الأحاديث ؛ كما عند قول المصنّف :
كذلك من يزني ويشرب جاهلاً من أهل البوادي حدّه ليس مهملاً ³⁹ .
قال الأمير في شرح هذا البيت : "... ، وفرّق عقب بينها : (أي بين الشرب والزنا) في الشرب أنّه أكثر وقوعاً من غيره ؛ ولأنّ مفسده أشدّ من مفسد الزّنى لكثرتها ؛ لأنّه ربّما حصل بشربه زنى وسرقة وقتل ولداً ؛ وورد أنّها أمّ الخبائث " ⁴⁰ .

- **منهم من حيث الترتيب**. لم يرتّب الأمير شرحه على وفق منهج معيّن؛ متّبعا في ذلك صاحب النظم الذي ذكرنا منهجه من حيث الترتيب آنفاً، فلا معنى للإعادة.

مصادر المخطوط

بعد الجولة الماتعة لهذا المخطوط العلمي، وُجدت مجموعة من المدوّنات قد اعتمد عليها الأمير أثناء شرحه، منها ما يأتي:

العلامة القاسمي على المحليّ (أصول الفقه)، المدونة للإمام مالك بن أنس، المقدمات الممهّدت لابن رشد (الجدّ)، الذخيرة للإمام القرافي، التوضيح والمختصر للشيخ خليل، الشامل لبهرام، ومعظم شراح خليل؛ كمواهب الجليل للخطّاب، وشرح التتائي على المختصر، وشرح الحرشي على المختصر.

(الهوامش):

1. أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين"، رقم: 71. ومسلم: كتاب الأمانة، باب قوله عليه الصلاة والسلام: "لا تزال طائفة..." حديث 1037
2. شجرة النور الزكية ، محمد بن محمد مخلوف، مط: المطبعة السلفية، القاهرة، (1349هـ)، 239 / 1
3. الدرر الكامنة، ابن حجر العسقلاني، مط: دار الجيل، بيروت، (1414هـ/ 1993م)، 86 / 2
4. مواهب الجليل، خطّاب، تح: زكريا اعميرات، مط: دار الكتب العلمية، لبنان، ط: 1(1416هـ/ 1994م)، 3/1

5. الدِّيَّاج المذهب، ابن فرحون، تح: مأمون بن محي الدين الجنان، مط: دار الكتب العلمية، لبنان، ط: 1 (1417هـ / 1996م)، ص: 186.
6. الدرر الكامنة، ابن حجر، 86/2
7. إنباء الغمر بانباء العمر، ابن حجر العسقلاني، تح: حسن حبشي، مط: وزارة الأوقاف، مصر القاهرة، (1389هـ / 1969م)، 32/2.
8. شجرة النور الزكية، محمد مخلوف، 240/1
9. مواهب الجليل، خطّاب، 3/1
10. قسط: من باب ضرب، إذا جار، وأفسط بالألف إذا عدل، وهو من الأضداد. ينظر: المصباح، الفيومي، تح: يحيى مراد، مط: مؤسسة المختار، القاهرة، ط: 1 (1429هـ)، ص: 303.
11. بوطليحية، ابن عمر الغلاوي، تح: يحيى بن البراء، مط: مؤسسة الريان، بيروت لبنان، ط: 1 (1422هـ / 2006م)، ص: 78
12. شجرة النور، محمد مخلوف، 239/1
13. المصدر نفسه، 240/1
14. شجرة النور، محمد مخلوف، 363/1
15. المصدر نفسه، 364 / 1
16. المصدر نفسه، 363/1
17. المصدر نفسه، 363/1
18. غلاف المخطوط أو المقدمة.
19. اللوحة: 01
20. اللوحة: 03
21. اللوحة: 03
22. اللوحة: 03

23. اللوحة: 04
24. اللوحة: 01
25. الشيخ عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن علوان الزرقاني، المالكي، له مؤلفات، منها:
شرح على مختصر خليل، (ت1099هـ). ينظر: شجرة النور: 304/1.
26. اللوحة: 04
27. التوضيح
28. مواهب الجليل، الخطّاب، 408/5
29. المدونة، مالك، مط: دار السعادة، مصر، ط: (1323هـ)، 328/2
30. اللوحة: 04
31. اللوحة: 01
32. اللوحة: 02
33. اللوحة: 04
34. ينظر: اللوحة: 05، المصباح المنير، الفيومي، ص: 165
35. البلاغة العربية، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، مط: دار القلم، دمشق،
ط: 1(1416هـ)، 559/2
36. اللوحة: 01
37. رسالة المسترشدين، الحارث المحاسبي، تح: عبد الفتاح أبو غدة، مط: دار السلام،
القاهرة، ط: 9 (1419هـ/1999م)، ص: 15.
38. الأذكار، النووي، مط: مكتب الدراسات والبحوث، مكة، الرياض، ط: 1 (1417هـ
1997م)، 135/1
39. ينظر اللوحة: 04
40. ينظر: اللوحة الرابعة: 04. التخريج